بسم الله الرحمن الرحيم

عبادة التفكر من أجل العبادات

أخي الحبيب، إن الناظر في السموات ليدهش من بديع صنعها وعظيم خلقها واتساعها، أنظر إلى السماء وداوم النظر فيها، وانظر في كواكبها، ودورانها، وطلوعها، وغروبها، واختلاف ألوانها وكثرتها، وشمسها وقمرها، باختلاف مشارقها ومغاربها، وحركتها من غير فتور ولا تغير في سيرها، كُلٌّ يجري في منازل قد رتِّبت له بحساب مُقدَّر لا يزيد ولا ينقص، ومع هذا فهو لا يرى فيها صدوعاً أو شقوقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ (١٩٢) ﴾ [الملك: ٣، ٤].

ولقد أثنى الله على عباده الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض؛ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، واسمع لقول الله تعالى عن عظم خلق السموات والأرض قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٧].

وتأمل تجد أنه ما من نجم إلا ولله له في خَلْقِه حِكْمَة، في مقداره، وفي شكله، وفي لونه، وفي موضعه في السماء، وفي قربه من النجوم المجاورة له، وتأمل في السموات تجد أنها قد رفعت بدون عمد مرئية مع عِظَمِها وَعِظَم ما فيها فلا

عمد من فوقها، ولا من تحتها قال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد:٢]، وقال تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[الحج:٦٥]، والإنسان العاقل أمام بديع صنع الله لا يملك إلا أن يقول: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك:١]

وضع الأجرام السماوية ليس مجرد مصادفة

أحبتي في الله، نظر أحد علماء الفلك الكفار إلى السماء من خلال منظار بَنَاه بنفسه، فرأى ما أذهله في هذا الكون، فقال: إن الإنسانية لن تصل إلى منتهى هذا الكون، ولن تعرف من الكون إلا مقدار ما نعرفه من نقطة ماء في محيط عظيم، فهل آمن مع ذلك وصدّق؟ لا، وصدق الله القائل: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم:٧].

وقال آخر أيضًا: إن وضع الأجرام السماوية ليس مجرد مصادفة وعشوائية، بل هي موضوعة في الفضاء بدقَّة وإتقان؛ إذ أن القمر لو اقترب من الأرض بمقدار ربع المسافة التي تفصلنا عنه لأغرق مدّ البحر الأرض كلها، وما علاقة القمر بالبحر؟! الله يعلمها الذي قال وصدق: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٦].

كلام مكتشف الجاذبية نيوتن بعد بحثه في هذا الكون

إخوتي في الله، لا يزال علماء الفلك يكتشفون من خلال تجاربهم ومراصدهم ومناظيرهم كل يوم ما يشْدَهُ ويدهش العقول في هذا الكون الفسيح، حتى قال مكتشف الجاذبية نيوتن معبرًا عن اكتشافه وضآلة ما اكتشفه بجانب ذلك الخلق العظيم، يقول: لست أدري كيف أبدو في نظر العالم، ولكني

في نظر نفسي، وأنا أبحث في هذا الكون أبدو كما لو كنت غلامًا يلعب على شاطئ البحر، ويلهو بين حين وآخر بالعثور على حَجَر أملس، أو محارة بالغة الجمال، في الوقت الذي يمتد فيه محيط الحقيقة أمامي دون أن يصل أحد إلى منتهاه، نعم ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا ﴾[الإسراء:٨٥]، لقد رأى المجرات الصغيرة وهي تتألف من عشرة ملايين نجم، ورأى المجرة العملاقة وقد وصل عدد نجومها المعروفة عشرة آلاف مليار يرتبطوا معا في دقة متناهية وإحكام.

نعم، لقد رأى مجرتنا درب التبانة والتي فيها المجموعة الشمسية، وقد تألَّفت من مائة مليار نجم، قد عُرِف، وعرف منها الشمس، وتبدو هذه المجموعة كقرص قطره تسعون ألف سنة ضوئية، وسمكه خمسة آلاف سنة ضوئية، ومع هذا البعد الشاسع فإن ضوء الشمس يصلنا في لحظات، وكذلك نور القمر.

بل قد رأى هناك مجرات تكبرها بعشرات المرات، أحصى منها مائة مليار مجرة تجري، كلها في نظام دقيق بسرعة هائلة، كل في مساره الخاص دون اصطدام، كل يجري لأجل ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾[الفرقان:٦١]، هذا الذي رآه، وما لم يره أكثر، فقد قال الله عز وجل: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ(٣٩) ﴾[الحاقة:٣٨-٣٩].

كلام أحد كبار علماء الفلك عند بحثه في هذا الكون

أحبتي في الله، يقول أحد علماء الفلك وهو يهودي: أريد أن أعرف كيف خلق الله الكون، أريد أن أعرف أفكاره، الله بارع حاذق ليس بشرِّير، الله لا يلعب بالنرد مع الكون، تعالى الله القائل: ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾

[غافر:٨١] ، كيف لو اطَّلع على ما جاء في القرآن ، لربما كان من المسلمين حقًا .

نعم ، الله لا يلعب مع الكون ، عز وجل ، وتبارك وتعالى وتقدس هو القائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ(١٨)﴾ [الأنبياء: ١٦-١٨] .

أحبتي في الله ؛ ما الأرض بالنسبة للكون إلا كحبة رمل في الصحراء تسير في مسار حول الشمس دون أن يصطدم بها ملايين النجوم ، والكواكب المنتشرة في الكون ، أما إننا لو علمنا ذلك يقينًا لاعترانا رهبة وخشوع يقود إلى امتثال لأمر الله في غاية الحب والذل .

تأملات إيمانية في هذا الكون البديع

إخوتي في الله ، إن السماء وتناثر الكواكب فيها أجمل مشهد تقع عليه العين ، ولا تمل طول النظر إليه أبدًا ، ولهذا أخي المسلم فإني أدعوك إلى أن تطلع على شيء من علم الفلك ، ثم اخلُ بنفسك بضع دقائق في ليل صفا أديمه ، وغاب قمره ، ثم تأمل عالم النجوم ، واعلم أن ما تراه ما هو إلا جزء يسير من مائة مليار مجموعة قد عرفت ، وكثير منها لم يعرف ، كل منها في يسير في مساره الخاص به ، لا يختلط بغيره ، وأنت تتأمل انقل تفكيرك إلى ما بثَّه الله في السماوات من ملائكة لا يحصيهم إلا هو ، قال النبي ﷺ: **أطت السماء ويحق لها أن تئط، والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا وفيه جبهة ملك ساجد يسبح لله بحمده**(أخرجه ابن مردويه وصححه الألباني) ،فيطوف بالبيت المعمور في السماء السابعة كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى قيام الساعة .

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ** (أخرجه أحمد في مسنده وصححه الألباني) ، ثم انقل تفكيرك إلى عرش الرحمن ، وقد علمت بالنقل سعته وعظمته ورفعته ، فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ النبي ﷺ: **آيَةُ الْكُرْسِيِّ** ، ثُمَّ قَالَ: **يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ** (أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات وحسنه الألباني) ، فلا إله إلا الله! وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

الملائكة حفت من حول العرش ، يسبحون ، ويحمدون ، ويكبرون ، والأمر يتنزل من الله بإحياء قوم ، وإماتة آخرين ، وإعزاز قوم ، وإذلال قوم ، وإنشاء مُلك ، وسلب ملك ، وتحويل نِعَم ، وقضاء حاجات ، وإغناء فقير ، وشفاء مريض ، وتفريج كرب ، ومغفرة ذنب ، وكشف ضُر ، ونصر مظلوم ، وهداية حيران ، وتعليم جاهل ، وإغاثة ملهوف ، وإعانة عاجز ، وانتقام من ظالم ، وكف عدوان من معتدٍ ، ولا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره ، ولا تُغلطه كثرة المسائل والحوائج على تباينها واتحاد وقتها ، ولا تنقص ذرة من خزائنه ، لا إله إلا هو! ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين . عندها لا نستطيع أن نقول : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٩١)﴾[آل عمران:١٩١] .



للمزيد ارجع: لدعوة للتأمل

[للشيخ: على عبد الخالق القرني]

دعوة للتأمل في الكون العظيم

إعداد : أحمد عبد المتعال

راجعها فضيلة الشيخ : أبو داود الدمياطي

خصم خاص للمتبرعين وفاعلي الخير

مكتبة الإيمان

المنصورة – تقاطع الهادي وعبد السلام عارف

٠١٠٠٠١٠٤١١٤-٠١٠٠٠٠٠٤٠٤٦